القاعدة الحادية والثلاثون

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

هذه قاعدة قرآنية وإيمانية، وثيقة الصلة بواقع الناس الاجتماعي، بل وبأخص تلك العلاقات الاجتماعية، تلكم هي **القاعدة القرآنية** التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق توجيه رباني عظيم، يقول الله تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومما يعين على فهم هذه القاعدة، أن نُذَكِّرَ بسبب نزول هذه الآية الكريمة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[1].

يقول العلامة ابن العربي المالكي:

«وحقيقة: (عشر) في اللغة العربية الكمال والتمام، ومنه: العشيرة، فإنه بذلك

---

(١) البخاري (٤٣٠٣).

كمل أمرهم، وصح استبدادهم عن غيرهم، وعشرةٌ تمام العقد في العدد، فأمر الله سبحانه الأزواج إذا عقدوا على النساء أن يكون أَدَمَةُ ما بينهم وصحبتهم على التمام والكمال، فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين، وأهنأ للعيش، وهذا واجب على الزوج، ومن سقوط العشرة تنشأ المخالعة، وبها يقع الشقاق، فيصير الزوج في شق، وهو سبب الخلع»[1].

ويقول العلامة الجصاص الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على هذه القاعدة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

هو «أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالمعروف، ومن المعروف: أن يوفيها حقها من المهر، والنفقة، والقَسْمِ، وترك أذاها بالكلام الغليظ، والإعراضِ عنها والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب»[2].

إن من تأمل وتدبر دلالات هذه القاعدة العظيمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أدرك أن هذا القرآن هو حقًا كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه القاعدة رقم قصر كلماتها - وهي كما ترى - كلمتان، اشتملت على معانٍ عظيمة، يطول شرحها، وما حديثنا عنها هنا إلا إضاءة وإشارة فحسب.

الوجه الثاني: أن الله تعالى ردّ أمر المعاشرة إلى العرف، ولم يحدده بشيء معين؛ لاختلاف الأعراف والعادات بين البلدان كما هو معروف وظاهر، ولاختلاف مكانة الأزواج من الناحية المالية والاجتماعية، إلى غير ذلك من صور التفاوت التي هي من سنن الله في خلقه.

---

(١) أجكام القرآن: (٢/ ٣٦٣) لابن العربي، بتصرف يسير.

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ٤٧) للجصاص.

وليست هذه هي القضية الوحيدة التي يَرُدُّ الشرعُ فيها أمور التعامل إلى العرف، بل جاء ذلك في مواضع كثيرة، من ألصقها بما نحن بصدد الحديث عنه، قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكما أن القاعدة التي نحن بصددها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تأمر الأزواج بمعاشرة أزواجهم بالمعروف، فإن هذه الآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] تأمر كلا الطرفين بذلك.

ويقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وفي شأن النفقة على المرضع والمرتضع يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إذ ليست نفقة الغني كنفقة الفقير، ولا نفقة الموسر كالمعسر.

ولعظيم موقع هذه المعاني التي دلت عليها هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أكّد النبي ﷺ هذه الحقوق في أعظم مجمع عرفته الدنيا في ذلك الوقت؛ حين خطب الناس في يوم عرفة فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[1].

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا.

والمقصود التنبيه على عظيم موقع هذه القاعدة الشرعية، والتي يتألم المؤمن من كثرة ما يرى من هتك لحرمتها، وعدم مراعاة لحدودها! فترى بعض الرجال لا يحسن

---

(١) مسلم (١٢١٨).

إلا حفظ وترديد الآيات والحقوق التي تخصه، ولا يتحدث عن النصوص التي تؤكد حقوق زوجته، فويل للمطففين.

وفي المقابل فإن على الزوجة أن تتقي الله ﷻ في زوجها، وأن تقوم بحقوقه قدر الطاقة، وأن لا يحملها تقصير زوجها في حقها على مقابلة ذلك بالتقصير في حقه، وعليها أن تصبر وتحتسب.

وليتدبر كلٌ من الزوجين ما قصّه الله تعالى في سورة الطلاق من أحكام وتوجيهات عظيمة، فإن الله تعالى ـ لما ذكر أحكامًا متنوعة في تلك السورة ـ عقّبَ على كل حكم بذكر فوائد التقوى التي هي سبب كل خير، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تقدس اسمه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥]؛ **ولعل السر في تتابع هذه التعقيبات**: أن أحوال الطلاق والفراق - مع وجود الحمل والإرضاع أو بقاء العدة - قد تحمل أحد الطرفين على التقصير والبغي، ونحو ذلك من التجاوزات، فجاءت هذه التعقيبات الإلهية لتبشر المتقين، ولتحذير المجانفين للتقوى، بأن أضداد هذه الوعود الإلهية ستحصل إن أنتم فرطتم في تطبيق شرع الله، ويوضح هذا المعنى ختم السورة بهذه الآية المخوفة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا...﴾ الآيات [الطلاق: ٨ - ١٠].

لقد كان سلف هذه الأمة يفقهون حقًا معاني هذه النصوص العظيمة، ومن ذلك هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، فهذا حبر الأمة

وترجمان القرآن ابن عباس ﷺ، يقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما أحب أن أستنطف -أستوفي- جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾»[1].

وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: أتيت محمد ابن الحنفية فخرج إلي في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية -وهو نوع نفيس من الطيب- فقلت: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منَّا ما نشتهيه منهن[2].

وبعد: هذه هي نظرة الإسلام العميقة للعلاقة الزوجية، اختصرتْها هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وكذلك: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فهي علاقة قائمة على المعاشرة بالمعروف، وعلى الصبر على ما قد يبدر من الطرفين من تقصير، فإن كانت العلاقة غير قابلة للاستمرار فيأتي الأمر بالتسريح بالمعروف -أيضًا- الذي يحفظ حق الكرامة لكلا الطرفين؛ كلُّ هذا يجعل المؤمن يفخر ويحمد الله على هدايته وانتمائه لهذه الشريعة العظيمة الكاملة من كل وجه، وينظر بعين المقت لتلك الأقلام الدنسة، والدعوات الخبيثة التي تجرئ المرأة -إذا رأت من زوجها ما تكره- وتوحي للرجل -إذا رأى من زوجته ما يكره- أن ينحرف قلبه عن مساره الشرعي ليقيم علاقةً محرمةً مع هذه أو ذاك!!

اللهم كما هديتنا لهذه الشريعة فارزقنا العمل بها، والثبات عليها حتى نلقاك.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (١٠/ ٢١٠) ح (١٩٦٠٨).

(٢) ذكرها القرطبي في تفسيره: (٦/ ١٦٠).

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الثانية والثلاثون

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، وثيقة الصلة بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم بالذات، وهي تعيش هذه التغيرات المتسارعة، والتي خالها البعض خارجةً عن سنن الله تعالى!! وليس الأمر كذلك.

وهذه القاعدة الكريمة جاءت في سياق تهديد الكفار الذين قابلوا الدعوة إلى الإسلام بالتكذيب والجحود، والاستهزاء والسخرية، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٨].

فقوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الكفار يقولون: «لو كان محمد صادقًا في وعيده لعُجِّلَ لنا وعيدُه، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية، وحكي: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تكريرهم ذلك؛ تجديدًا منهم للاستهزاء وتوركًا على المسلمين»[1].

ثم جاء التعقيب على هذه المقالة الآثمة، بهذه القاعدة التي تسكب اليقين والطمأنينة في نفس النبي ﷺ ونفوسِ أتباعه من المؤمنين المضطهدين، الذين امتلأت آذانهم من استهزاء هؤلاء الكفار، فقال الله -وهو أصدق من وعد وأصدق من وفّى- ﷻ: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لا تختص بهذا المعنى الذي وردت الآية في سياقه -وهو تعذيب الكفار- بل هي عامة في كل ما وعد الله به؛ إذ لا مكره لربنا جل وعلا، ولا راد لأمره ومشيئته، ولكن الشأن في تحقق العباد بفعل الأسباب المتعلقة بما وعد الله به.

كما أن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ دلّت على معنى يُقَرِّرُ بعض اللغويين خلافه، وهو أنه اشتهر عند كثيرين أن الوعد خاص بالخير، والوعيد متعلق بالشر، وينشدون في هذا البيتين المشهورين:

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي ... ولا أنثني عن سطوة المتهدد

فإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وهذه القاعدة التي نحن بصددها تخالف هذا الإطلاق، يقول العلامة الشنقيطي -بعد أن ذكر عدة شواهد تؤكد خطأ هذا الإطلاق-: «ومن الآيات الموضحة لذلك

---

(١) التحرير والتنوير: (١٧/ ٢١٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٧٢] فإنه قال في هذه الآية في النار: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ﴾ بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد، ولم يقل: أوعدها، وما ذكر في هذه الآية، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة، وأنه لا يخلف وعده بذلك، جاء مبينًا في غير هذا الموضع... -ثم ذكر جملة من الشواهد، ثم قال-: وبالتحقيق الذي ذكرنا: تعلَم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا»[1].

إذا تقرر عموم هذه القاعدة في الخير والشر، فإنها -بلا ريب- من أعظم ما يجدد الفأل في نفوس أهل الإسلام، في الثبات على دينهم ومنهجهم الحق، بل وتزيدهم يقينًا بما عليه أهل الكفر والملل الباطلة من ضلال وانحراف، وبيان هذا: أن المؤمن لا يزال يرى -إما بعين البصر أو البصيرة- صدق ما وعد به أولياءه في الدنيا، كيف لا وهو يقرأ نماذج مشرقة في كتاب الله ﷻ؟!

ألسنا نقرأ قول ربنا في سورة آل عمران في سياق الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؟

أين نحن عن فواتح سورة الروم التي يقول الله تعالى فيها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى الۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ الۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الۡعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ اللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ اللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ الۡحَيَوٰةِ الدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ الۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ - ٧].

وهذه الآيات من سورة الروم، تشير إلى سبب كبير في ضعف اليقين تجاه الوعود الربانية، ألا وهو: التعلق بالدنيا، والركون إليها، ولهذا فإنك لو تأملتَ لوجدت أن

---

(١) أضواء البيان: (٥/ ٢٧٦).

أضعف الناس يقينًا بموعود الله هم أهل الدنيا، الراكنين إليها، وأقواهم يقينًا هم العلماء الربانيون، وأهل الآخرة، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

ولا يشكل على هذا ما يمر على القارئ من آيات قد يفهم منها أن فيها نوعًا من التردد في تصديق وعد الله، أو الشك في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، فإن هذه الآيات إنما تحكي حالةً عارضة تمر بالإنسان -بسبب ضعفه حينًا، وبسبب استعجاله أحيانًا- وليست حالةً دائمةً، وإذا كان الشك في موعود الله لا يصح أن ينسب إلى آحاد المؤمنين، فهو من الأنبياء والمرسلين أبعد وأبعد، ولكن - ولحكمة بالغة - جاءت هذه الآيات لتطمئن المؤمنين من هذه الأمة أن حالات اليأس التي قد تعرض للعبد مجرد عرْض بسبب شدة وطأة أهل الباطل، أو تسلط الكفار، فإنها لا تؤثر على إيمانه، ولا تقدح في صدقه وتصديقه؛ ولهذا -والله تعالى أعلم- يأتي مثل هذا التثبيت في بعض الأحوال التي تعترض نفوس أهل الإيمان فترة نزول الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٧].

والمؤمن ليس من شأنه أن يقترح أجلًا لإهلاك الكفار، أو موعدًا لنصر الإسلام، أو غير ذلك من الوعود التي يقرأها في النصوص الشرعية، ولكن من شأنه أن يسعى

في نصرة دينه بما يستطيع، وأن لا يظل ينتظر مضي السنن؛ فإن الله لم يتعبدنا بهذا، وعليه أن يفتش في مقدار تحققه بالشروط التي ربطت بها تلك الوعود، فإذا قرأ -مثلًا- قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧] فعليه هنا أن يفتش عن أسباب النصر التي أمر الله بها: هل تحققت فيه فردًا أو في الأمة على سبيل المجموع؛ ليدرك الجواب على هذا السؤال: لماذا لا تنتصر الأمة على أعدائها؟!

ولو ذهب الإنسان إلى تعداد الآيات الموضحة لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ لطال به المقام، ولكن حسبنا ما ذكر.

ولعلنا نختم هذه القاعدة بهذه اللطيفة المتصلة بها: ذلك أن هذه القاعدة تضمنت تمدّح الله بهذا، وثناءه على نفسه، ويتضح لك هذا المعنى إذا قرأت ما حكاه الله تعالى عن إبليس -وهو يخطب في حزبه وأوليائه في جهنم- حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ فسبحان مَنْ تمدح بالكمال وهو أهلٌ له، وسبحان من وعد فأوفى، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]؟

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الثالثة والثلاثون

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وضوابط شرعية في مسألة حدث ولا زال يحدث فيها الخلل؛ بسبب القصور أو التقصير في تلمس الهدي القرآني في تطبيق تلكم **القاعدة القرآنية**.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في أثناء قصة قارون، الذي غرّه ماله، وغرته نفسه الأمارة بالسوء، فقال - لما قيل له: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] فقال قولة المستكبر -: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] نعوذ بالله من الخذلان.

والشاهد: أن هذه القاعدة هي ميزان عظيم في التعامل مع المال، الذي هو مما استخلف الله العباد عليه، ولهذا سيسألهم يوم القيامة عنه سؤالين: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه[1].

إن من أعظم مزايا هذا الدين ومحاسنه، أنه دين يدعو إلى التوازن في كل شيء،

---

(١) الترمذي (٢٤١٧) وإسناده حسن، وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله عنه وفي سنده ضعف.

من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء -في أمر الدين أو الدنيا- وهذا ما تقرره هذه القاعدة بوضوح وجلاء: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولو تأملنا هذه الآية لوجدنا ترتيب الكلام فيها كأنه عقد نُظِمَ كأحسن ما يكون النَّظم، فهي قد اشتملت على أربعة وصايا عظيمة، أحوج الناس إليها -في هذا المقام- هم أرباب الأموال، فلنتأملها جميعًا:

الأولى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فإن الآخرة هي المستقبل الذي يجب على كل عاقل أن يسعى للنجاة فيها، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيدًا لها، وأن يجعل سعيه في حياته غراسًا ليوم الحصاد.

وقارون قد حصل عنده من وسائل الغرس في الآخرة ما ليس عند أكثر الناس، فأمره الله أن يعمل فيها بأعمال يرجو فيها ما عند الله، وأن يتصدق ولا يقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات.

وأما الوصية الثانية: فهي ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

«والنهي في ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ على سبيل الإباحة، فالنسيان هنا كناية عن الترك، والمعنى: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا - أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة -، وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ؛ لأنهم لما قالوا لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أوهموا أن يترك حظوظ الدنيا فلا يستعمل ماله إلا في القربات، قال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كله!

وبذلك تكون هذه الآية مثالًا لاستعمال صيغة النهي لمعنى الإباحة، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، والمراد بالدنيا نعيمها، فالمعنى: نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا»[1].

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٨) بتصرف واختصار.

وههنا سؤال قد يطرحه بعض الناس: وهو أن الإنسان جُبِلَ فطرةً على حب المال، والتعلق بشيء مما لا بد له منه في هذه الدنيا، فكيف أمر أن لا ينسى نصيبه، وهو أمرٌ شبه المستحيل، بل المتوقع أن يقال: ولا تنس نصيبك من الآخرة؟!

فالجواب -والله تعالى أعلم بمراده-: أن هذه الآية جاءت لضبط التوازن، كما أسلفنا في التعامل مع زينة الدنيا، ومن ذلك: المال، فقد يسمع أحدُ التجار أو الأثرياء مثل هذه الموعظة فيظن أن القصد أن يتخلى عن كلّ شيء من نعيم الدنيا ولو كان مباحًا، فيقال له: وإن أُمِرت بأن يكون جل همك الآخرة، فلسنا نطلب منك ترك ما أباح الله تعالى، بل المطلوب العدل، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه.

ولهذا كان من بديع تفسير الإمام مالك لهذه الآية أن قال: هو الأكل والشرب من غير إسراف، فهو يشير بهذا إلى ما ذكرناه آنفًا، والعلم عند الله.

ولقد وقع في عهد النبي ﷺ من بعض الصحابة رضي الله عنهم خلل في فهم حقيقة الزهد والتعبد، حين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فكأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

وبهذا المنهج المتوازن المبني على الكتاب والسنة كان أئمة الإسلام، وعلماء الملة يردون على ما أحدثه بعض الزهاد والعُباد من ألوان من التزهد التي تجافي هذا الهدي

---

(١) البخاري (٤٧٧٦).

النبوي العظيم[1].

وذكر بعض أهل العلم ملمحًا لطيفًا في توجيه معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أن الله ﷻ «أراد أن يجعل الدنيا شيئًا هيّنًا مُعرَّضًا للنسيان والإهمال، فهو يُذكِّرنا بها، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب، فأنا لا أقول لك: لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام»، والله أعلم بمراده[2].

أما الوصية الثالثة: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وهذا يتفق تمامًا مع العقل والشرع، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟

«والإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنه ذكر هنا ليبني عليه الاحتجاج بقوله ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، والكاف للتشبيه، أي: كإحسان الله إليك»[3].

وهذه الآية فيها من التعليل والحض ما هو ظاهر، وهي كقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فكما تحب أن يعفو الله عنك، فاعف عن عباده، وهنا: كما تحب أن يحسن إليك ربك، ويدوم إحسانه، فلا تقطع إحسانك عن خلقه، وإلا فالله غني عن العالمين.

ورابع هذه الوصايا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) ومن أكثر من رأيتهم يردون على هؤلاء: ابن الجوزي في عدد من كتبه، وابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم رحمة الله على الجميع.

(٢) أشار إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره.

(٣) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٨).

«وعطف ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد، وإنما نص عليه؛ **لأنه لما تعددت موارد الإحسان والإساءة** فقد يغيب عن الذهن أن الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يعتبر غير إحسان!

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ علة للنهي عن الإفساد؛ لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله»[1].

وبعد هذا التطواف السريع في ظلال هذه القاعدة القرآنية الجليلة: يتبين لنا بوضوح أن هذا القرآن -كما قال منزله ﷻ-: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأنه ما من قضية يحتاجها الناس إلا وحكمها في كتاب الله، كما قال الإمام الشافعي، ولكن أين المتدبرون، والناهلون من هذا المعين الذي لا ينضب؟!

اللهم إنا نسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ونسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٩) بتصرف واختصار.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الرابعة والثلاثون

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عقدية، نزلت قبل أربعة عشر قرنًا، ولا تزال معانيها تتجدد لأهل الإسلام في كل زمان.

ولا يخفى أن هذه القاعدة المحكمة جاءت في سورة البقرة، تلك السورة التي تحدثت بتفصيل عن حقيقة أهل الكتاب، واليهود بشكل أخص -لكونهم يسكون المدينة-.

ونزول هذه الآية الكريمة -كما أشار إليه جمع من المفسرين- جاء عقب مرحلةٍ من محاولات النبي ﷺ لتأليف اليهود، لعلهم يستجيبون، وينقادون لدين الإسلام، فجاء هذا الخبر القاطع لكل محاولات التأليف التي كان النبي ﷺ يمارسها معهم.

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري:

«وليست اليهود -يا محمد- ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق؛ فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية،

والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًا نصرانيًا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل، وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»[1].

فتأمل ما تضمنته تتمة هذه القاعدة من وعيد عظيم لمن اتبع أهواءهم، ولمن هذا الوعيد العظيم؟! لمحمد ﷺ! مع أنه لا يمكن أن يقع منه شيء من ذلك بعصمة الله له، قال تعالى في تتمة هذه القاعدة المحكمة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وتأمل كيف قسّم الله تعالى الأمر -في هذا الأصل العظيم- إلى قسمين: هدىً وهوىً، فالهدى هو هدى الله، وليس وراء ذلك إلا اتباع الهوى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تتمة تعليقه على هذه الآية:

«يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك»[2].

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٤٨٤).

(٢) تفسير الطبري: (٢/ ٤٨٤).

فإذا كان هذا الكلام موجهًا للنبي ﷺ، فمَنِ الناسُ بعده؟!

وهذه القاعدة المحكمة قالها الذي يعلم السرّ وأخفى، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال خلقه، لا حاضرًا ولا مستقبلًا، فالذي قال هذا الكلام، هو الذي قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وقد أحسن العلامة السيد محمد رشيد رضا؛ حين لخص القواعد التي اشتملت عليها سورة البقرة، فجعل من جملة هذه القواعد: هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها فقال عن هذه الآية: إنها «آية للنبي ﷺ كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره، ولا تزال مطردة في أمته من بعده، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية؛ فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر - فلم يرضوا عنهم، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم»[(١)].

ومع وضوح هذا النص القرآني المحكم، فإنك لتتألم من تشكيك بعض المسلمين بهذه الحقيقة، وهذا التشكيك يأخذ صورًا شتى، تبدأ من التشكيك في كون هؤلاء كفارًا أصلًا! وتنتهي عند المطالبة بالتماهي والاندماج التام معهم، في مسخ واضح لأصل من الأصول الكبار، ألا وهو الولاء والبراء!

ولم يفرق هؤلاء بين ما يصلح أن يؤخذ منهم، ويستفاد منه في أمور الدنيا، وبين اعتزاز المؤمن بدينه، وتمايزه بعقيدته! وليس الحديث عن هذه الطوام التي لا يقولها عاقل قرأ التاريخ، فضلًا عمن عقل عن الله ورسوله قولها.

وإن المؤمن -وهو يسمع أمثال هذه الكلمات الفجّة- ليتساءل عن هؤلاء الكُتّاب

---

(١) تفسير المنار: (١/ ٩٥).

الذين يحملون أسماء إسلامية: ألم قول الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]؟

وأين هم من قولِ الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؟!

ألم يتأملوا قوله ﷻ عن سائر الكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠]؟!

هذه شهادة من الله على أعدائنا بما يريدون منا، وما يحاولونه من صدنا عن ديننا، فهل بعد هذه الشهادة من شهادة؟ أولم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد؟!

إن هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وما جاء في معناها من الآيات التي ذكرتُ بعضها خَبَرٌ، والخبر لا ينسخ، لأن نسخه يستلزم أن يكون المخبر بهذا كاذبًا، وهذا لو كان في حق آحاد فضلاء الناس لكان من أعظم القدح فيه، فكيف إذا كان المتكلم به هو الله العليم الخبير؟!

ولو أردنا أن نقلب صفحات التاريخ؛ لوجدنا الجواب الذي يزيد المؤمن يقينًا بهذه القاعدة المحكمة!، فمن الذي سمّ الشاة التي وجد النبي ﷺ أثرها حتى لقي ربه؟! ومن الذي قتل الفاروق رضي الله عنه؟ ومن الذي سَمَّ جملة من الخلفاء المسلمين الذين كان لهم أثر في ضعف شوكة اليهود أو النصارى؟!

لقد غرّ بعض هؤلاء المتحدثين -بما ذكرناه آنفًا- كونهم يتعاملون مع بعض الأفراد من اليهود والنصارى فلا يجدون منهم إلا تعاملًا جيدًا -كما يقولون- وهذا قد يقع، ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكون قاضيًا على هذا الخبر المحكم من كلام ربنا، ذلك أن العلاقة الفردية قد يشوبها من المصالح، أو تكون حالات استثنائية، فإذا جدّ الجِدّ، ظهرت أخلاقهم على الحقيقة، ومن له أدنى بصر أو بصيرة أدرك ما فعلته الحروب الصليبية التي غزت بلاد الشام قبل وبعد صلاح الدين! وما فعله إخوانهم وأبناؤهم في فلسطين وأفغانستان والعراق، وما حرب غزة الأخيرة إلا أكبر شاهد، ولا ينكره إلا من طمس الله بصيرته عياذًا بالله!

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه الذي ارتضاه لنا، وأن يعيذنا من الحور بعد الكور.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الخامسة والثلاثون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، لها صلة عظيمة بعبادة من أعظم العبادات، ألا وهي عبادة الدعاء.

وهذه القاعدة المتعلقة بالدعاء جاءت تعقيبًا على جملةٍ من آيات الصيام، فهلمّ لنقف على شيء من هدايات هذه القاعدة القرآنية:

١- القرآن اشتمل على أربعة عشر سؤالًا، وكلها تبدأ بـ (يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ (قل) إلا في آية واحدة (فقل) في سورة طه، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأ بهذه الجملة الشرطية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وجاء جواب الشرط من دون الفعل: قل، بل قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فكأن هذا الفاصل مع قصره (قل) كأنه يطيل القرب بين الداعي وربه، فجاء الجواب بدون واسطة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء! وهو من أبلغ ما يكون في الجواب عن سبب النزول -لو صحّ- حينما سئل النبي ﷺ: «أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟».

٢- تأمل في قوله: ﴿عِبَادِي﴾ فكم في هذا اللفظ من الرأفة بالعباد؛ حيث

أضافهم إلى نفسه العليّة سبحانه وبحمده، فأين الداعون؟ وأين الطارقون لأبواب فضله؟!

٣- فإني قريب: ففيها إثبات قربه من عباده جل وعلا، وهو قرب خاص بمن يعبده ويدعوه، وهو- والله - من أعظم ما يدفع المؤمن للنشاط في دعاء مولاه.

٤- في قوله: ﴿أُجِيبُ﴾ ما يدل على قدرة الله وكمال سمعه سبحانه، وهذا ما لا يقدر عليه أي أحد إلا هو سبحانه!

إن أي ملك من ملوك الدنيا -ولله المثل الأعلى- مهما أوتي من القوة والسلطان لا يمكنه أن ينفذ كل ما يطلب منه؛ لأنه مخلوق عاجز، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض والموتَ، فضلًا عن غيره، فتبارك الله القوي العزيز، الرحيم الرحمن.

٤- مع قوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ ففيها إشارة إلى أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي حاضر القلب حينما يدعو ربه، وصادقًا في دعوة مولاه، بحيث يكون مخلصًا مشعرًا نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعرًا نفسه بكرم الله، وجوده[1].

٥- ومن هدايات هذه القاعدة ودلالتها: أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرعًا إلى الله، وإلحاحًا في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر -والله أعلم- في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[2].

٦- وتاج هذه اللطائف المتصلة بهذه القاعدة من قواعد العبادة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أنك تلحظ فيها سرًا من أسرار

---

(١) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب: (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

عظمة هذا الدين، وهو التوحيد، فهذا ربك -أيها المؤمن- وهو ملك الملوك، القهار الجبار، الذي لا يشبه مُلْكَه ملك، ولا سُلْطَانه سلطان - لا تحتاج إذا أردتَ دعاءه إلى مواعيد، ولا إلى أذونات، ولا شيء من ذلك، إنما هو رفع اليدين، مع قلب صادق، وتسأل حاجتك، كما قال بكر بن عبد الله المزني -أحد سادات التابعين-: «من مثلك يا ابن آدم! خلي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك، وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان»؟![1]، فيا لها من نعمة لا يعرف قدرها إلا الموفق، وإلا الذي يرى ما وقع فيه كثير من جهال المسلمين من التوسل بالأولياء والصالحين، أو ظنهم أن الدعاء لا يقبل إلا من طريق الولي الفلاني أو السيد الفلاني!!

وإذا تبين وقعُ هذه القاعدة فإنك ستدرك أن الحرمان الحقيقي للعبد حينما يحرم طرق الباب، وأن تنسيه نفسه هذا السبيل العظيم! كما قال أبو حازم لأنا من أن أمنع الدعاء، أخوف مني من أن أمنع الإجابة[2].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أجمع العارفون أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلّه عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكني أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه).

وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٢٢٩).

(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٢٤١، ٧/ ٢٨٨).

ينزل عليهم على حسب ذلك،... وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر -بمشيئة الله وعونه- إلا بقيامه بالشكر، وصدق الافتقار والدعاء»[1].

ومن المعاني المهمة التي ينبغي أن يستحضرها العبد -وهو في مقام الدعاء- ما أشار إليه الإمام أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو يتحدث عن الحكمة من مشروعية الدعاء- فيقول: «وقد قضى الله سبحانه أن يكون العبد ممتحنًا ومستعملًا، ومعلقًا بين الرجاء والخوف -اللذين هما مدرجتا العبودية- ليستخرج منه بذلك الوظائف المضروبة عليه، التي هي سمة كل عبد، ونِصْبةُ كل مربوب مُدَبّرٍ»[2].

ومن هدايات هذه القاعدة -المتعلقة بسياقها-: استحباب الدعاء عند الفطر في رمضان وغيره، وهذا ما يدل عليه ظاهر القرآن، وفعل السلف، وفي السنة المرفوعة أحاديث لا تخلو من مقال، ولكن ها أنت ترى ظاهر القرآن يعضدها، ووجه الدلالة من الآيات على هذا المعنى: أن الله تعالى ذكر هذه الآية -آية الدعاء- بُعَيْد آيات الصيام وقبيل آية إباحة الرفث في ليل الصيام، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر»[3].

فما أجمل العبد وهو يظهر فقره وعبوديته بدعاء مولاه، والانكسار بين يدي خالقه ورازقه، ومَنْ ناصيته بيده!

وما أسعده حينما يهتبل أوقات الإجابة ليناجي ربه، ويسأله من واسع فضله في

---

(١) الفوائد: (١٨١).

(٢) شأن الدعاء: (٩-١٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٧٣).

خيري الدنيا والآخرة!

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق اللجأ إليه، والانطراح بين يديه، وكمال التضرع له، وقوة التوكل عليه، وأن لا يخيب رجاءنا فيه، ولا يردنا خائبين بسبب ذنوبنا وتقصيرنا.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة السادسة والثلاثون

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾

هذه قاعدة شرعية من أعظم القواعد الشرعية التي يفزع إليها العلماء في فتاواهم.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة التغابن، وفي تدبر سياقها ما يحسن إيراده هنا، خاصةً وأن هذه القاعدة بدأت بالفاء التي يسميها بعض العلماء: الفاء الفصيحة، أو فاء التفريع، فما بعدها فرعٌ عما قبلها، ذلك أن الله جل وعلا قال قبل هذه القاعدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥] ثم جاء التعقيب بعد هذا بقوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

«أي: إذا علمتم هذا، فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارِف في الأموال، فلا يصدّكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حدّ العدل المأمور به، ولا حُبُّ المال عن أداء حقوق الأموال

وعن طلبها من وجوه الحلال، فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدم وللترغيب في العفو كما تقدم ولما عدا ذلك... ولما كانت التقوى - في شأن المذكورات وغيرها - قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصًا على إرضاء شهوة النفس -في كثير من أحوال تلك الأشياء- زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم؛ ليعم الأزمان كلها، ويعم الأحوال تبعًا لعموم الأزمان ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان، وجعلت الأزمان ظرفًا للاستطاعة لئلا يقصروا بالتفريط في شيء يستطيعونه فيما أمروا بالتقوى في شأنه ما لم يخرج عن حدّ الاستطاعة إلى حدّ المشقة، فليس في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ تخفيف ولا تشديد، ولكنه عَدل وإنصافٌ، ففيه ما عليهم وفيه ما لهم»[1].

وبعد هذا العرض المجمل لمعنى القاعدة، يتبين أن هذا القدر من التقوى هو الواجب على العبد فعله -وهو تقوى الله ما استطاع-، أما التقوى التي يستحقها الله تعالى، فهي التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهي التي فسرها جمع من السلف بقوله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر[2]، وبهذا الجمع يتبين أنه لا يصح قول من قال: إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخة لآية آل عمران: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

إن هذه القاعدة القرآنية المحكمة تدل بوضوح على أن كل واجب عجز عنه المكلف، فإنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٨) باختصار يسير.

(٢) ينظر: تفسير السعدي (١٤١).

ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(١)].

فدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يمكن حصره كما يقول غير واحدٍ من أهل العلم[(٢)].

ولعلنا نأخذ بعض الأمثلة التي تجلي هذا القاعدة:

١- أول هذه الأمثلة التي يحسن التمثيل بها هو ذلك الموقف الذي جعل النبي ﷺ يقول كلمته الجامعة الآنفة الذكر: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»: فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟! فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتُ: نعم لوجبت! ولما استطعتم»! ثم قال: «ذروني ما تركتكم! فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة أنه: «إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى فيهما؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما»[(٣)].

---

(١) البخاري ح (٦٨٥٨)، ومسلم ح (١٣٣٧).

(٢) تفسير السعدي: (١٤١).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (١/ ١١٠).

٣- أن الواجب عند إرادة الصلاة: التطهر بالماء، فإن عدم أو تعذر استعماله، فإن الإنسان ينتقل إلى التيمم كما هو معلوم.

٤- أن صلاة الفريضة الأصل فيها أن يؤديها المصلي قائمًا، فإن عجز صلى جالسًا، وإلا صلى قاعدًا، كما دلّ على ذلك عمران بن حصين ﷺ، ويدخل في ذلك جميع شروط الصلاة وأركانها وواجباتها.

٥- وفي الصيام يجب على المسلم أن يمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فإن كان الصيام يشق عليه أفطر وانتقل إلى الإطعام.

٦- وفي الحج؛ فإن مبنى هذا الركنِ كلّه على هذا الأصل العظيم: الاستطاعة، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وكما سبق في حديث أبي هريرة ﷺ.

٧- ومن فروع هذه القاعدة في مناسك الحج: أن من لم يجد مكانًا في منى أو مزدلفة سكن حيث تيسر له، ومثله فيمن عجز عن الرمي لأي سبب معتبر شرعًا، ولعل الحج من أكثر أركان الإسلام فروعًا تطبيقيةً لهذه القاعدة العظيمة.

٨- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن المكلف يجب عليه أنه ينكر باليد إذا قدر عليه، فإن عجز فباللسان، وإلا فبالقلب كما دل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ المخرج في الصحيح[1].

٩- وفي باب النفقات: فإن من عليه نفقةٌ واجبة، وعجز عن جميعها، بدأ بزوجته فرقيقه، فالولد، فالوالدين، فالأقرب ثم الأقرب، وكذلك زكاة الفطر.

١٠- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة: مسائل الولايات والوظائف الدينية

---

(١) صحيح مسلم (٤٩).

والدنيوية كلُّها - صغارُها وكبارُها - داخلة تحت هذه القاعدة العظيمة، فكل ولاية يجب فيها تولية الأصلح الذي يحصل بتوليته مقصود الولاية، فإن تعذرت كلها، وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل، وقد سبق حديث مفصّل عند الكلام على قاعدة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦][1].

وبما سبق من أمثلة يتجلى لنا عظيم موقع هذه القاعدة من هذا الشرع المطهر، الذي مبناه على اليسر والسعة، فنسأل الله تعالى الذي هدانا لهذا الدين القويم، أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وأن يرزقنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه.

(١) وهي القاعدة السابعة عشرة.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة السابعة والثلاثون

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة تضم كلمات جامعة، وتمثل أصلًا من أصول الوصايا القرآنية.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة هود، تلك السورة العظيمة التي بين الله فيها سبيل الحق والباطل، ثم ذكر فيها مصير هؤلاء وأولئك، ونماذج تاريخية من واقع الرسل مع أقوامهم، ثم ختمت تلك القصص كلها بقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ...﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١٠١ - ١١٢].

وقد بقيت مع هذه السورة برهة من الزمن، أتأمل فيها، وأبحث عن مقصودها؛ فبدا لي -والله أعلم- أنها كلها تدور على آية واحدة، يمكن أن نسميها: العمود الفقري -إن صح التعبير- لهذه السورة العظيمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ

بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]، وأن ما قبلها وبعدها إلى نهاية هذه السورة إنما يعود إلى هذه الآية، والله أعلم، وقد فصّلت ذلك في موضع آخر.

والمتأمل في هذه السورة العظيمة يلحظ فيها بجلاء كثرة الخطاب للنبي ﷺ سواء بضمير الخطاب في عشرات المواضع - وهو أكثرها - أو بغير ضمير الخطاب، ومنها: هذا الموضع الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه القاعدة المحكمة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، ولنا مع هذه القاعدة عدة وقفات:

الوقفة الأولى:

ما حقيقة الاستقامة؟ وما سر هذا الأمر الصريح له ولأتباعه بلزوم الاستقامة؟

أما حقيقة الاستقامة، فإن كلمات السلف من الصحابة ومن بعدهم تدور على معنى واحد في الجملة، ألا وهو أن الاستقامة: «هي سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمل ذلك فعلَ الطَّاعات كلّها، الظاهرة والباطنة، وتركَ المنهيات كُلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصال الدِّين كُلِّها»[1].

وأما عن سر هذا الأمر الصريح للنبي ﷺ ولصحابته بالاستقامة، فإن الجواب عن هذا يطول جدًّا، لكن من أجلى ما يوضح ذلك: أن يعلم المؤمن أن أعظم غرض يريده الشيطان من بني آدم هو إضلالهم عن طريق الاستقامة، ألم يقل عدو الله: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]؟! ولهذا أمرنا أن نكرر في اليوم والليلة ١٧ مرة على أقل تقدير قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]،

---

(١) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، وثبتنا عليه يا رب العالمين.

الوقفة الثانية مع هذه القاعدة:

فهذا الأمر للنبي ﷺ بالاستقامة هو أمرٌ بالثبات على الاستقامة، ولغيره أمر بها وبالثبات عليها، يقول ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَمْرُ النبيِّ ﷺ بالاستقامة -وهو عليها- إنما هو أمر بالدوام والثبوت، وهذا كما تأمر إنسانًا بالمشي والأكل ونحوه، وهو ملتبس به**»[1]، ويوضح كلام ابن عطية هذا ما سبقت الإشارة من تكرار الدعاء في الفاتحة بـ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

ويوضح هذا أن القرآن الكريم مليء بالأمر بهذا الأصل العظيم أو الثناء على أهله في مواضع متنوعة، وبأكثر من أسلوب، ومن ذلك:

١- ما جاء في سورة الشورى -التي تحدثت عن الشرائع السابقة واتفاقها في جملة من الأصول- فقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ...﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

٢- ومن ذلك أيضًا: أن الله تعالى أمر بهذا الأصل غير واحد من الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- فقد قال لموسى وهارون: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، بل لقد امتنّ الله بهذا الأصل على جميع الأنبياء والمرسلين، فإنه ﷻ لما ذكر عددًا كبيرًا من الرسل في سورة الأنعام قال: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٢٥).

٣- وفي صدر سورة فصلت ملحظ مهم في ترسيخ معنى هذه القاعدة، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ...﴾ الآيات [فصلت: ٦]، وفي نفس السورة يبشر الله عباده المستقيمين على دينه بأعظم بشارة تتمناها نفس: فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

واستعراض الآيات الواردة في الاستقامة نصًا أو معنى ليس مقصودًا لنا هنا، وإنما الغرض التنبيه على ذلك.

الوقفة الثالثة، مع هذه القاعدة:

إن من تأمل هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ تبين له عظم وخطورة هذا الأمر -أعني الاستقامة والثبات على الدين- كيف، وهما اللتان أقضتا مضاجع الصالحين؟!

روى البيهقي في «**شُعب الإيمان**» عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام! فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود»؟ فقال: «**نعم**» فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟! فقال: «**لا، ولكن قوله:** ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾»[(١)].

وهذه الرؤيا -كما لا يخفى- هي كغيرها لا يعتمد عليها في الأحكام الشرعية، ولا في تصحيح أو تضعيف الأحاديث، ومنها: الحديث المشهور: «**شيبتني هود وأخواتها**»[(٢)] فإنه حديث مضطرب الإسناد، كما بيّن ذلك جمع من الحفاظ: كالترمذي

---

(١) شعب الإيمان: (٤/ ٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي وغيره ح (٣٢٩٧)، وينظر: العلل لابن أبي حاتم رقم (١٨٢٦)، ولصديقنا د.سعيد الرقيب الغامدي بحث مفصل في بيان طرق وعلل هذا الحديث منشور على موقع ملتقى أهل الحديث.

والدارقطني وابن حجر رحمهم الله جميعًا، **وإنما الغرض هنا** الاستئناس بهذه الرؤيا على عظيم موقع هذا الأمر الإلهي من نفس النبي ﷺ.

الوقفة الرابعة مع هذه القاعدة:

أن الإنسان مهما بلغ من التقوى والإيمان، فهو بحاجة ماسة إلى التذكير بما يُثبِّتُه، ويزيد استقامته، ولو كان مستغنيًا عن ذلك؛ لكان نبينا ﷺ أولى الناس بهذا، **يقول ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته»[(١)].

الوقفة الخامسة مع هذه القاعدة:

أن يعلم المؤمن أن أعظم مدارج الاستقامة هي استقامة القلب، فإن استقامته ستؤثر على بقية الجوارح - ولا بد - قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التوحيد**، كما فسر أبو بكر الصِّديق وغيرُه قولَه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلبُ -على معرفةِ الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه ودعائه، والتوكُّلِ عليه، والإعراض عما سواه- **استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعته**، فإنَّ القلبَ هو ملكُ الأعضاء، وهي جنودهُ، فإذا استقامَ الملك، استقامت جنودُه ورعاياه[(٢)]،... وأعظم ما يُراعى استقامتُه - بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح -: اللسانُ؛ فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه»[(٣)]، «ومن استقام على هذا الصراط حصل له سعادة الدنيا والآخرة، واستقام

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٢٩٨).

(٢) كما في الحديث المتفق عليه: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

(٣) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

سيره على الصراط يوم القيامة، ومن خرج عنه فهو إما مغضوب عليه، وهو من يعرف طريق الهدى ولا يتبعه كاليهود، أو ضال عن طريق الهدى كالنصارى ونحوهم من المشركين»[1].

نسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يجعلنا ممن استقام ظاهره وباطنه على ما يحبه ويرضاه، وأن يثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاه.

(١) فتح الباري لابن رجب: (٤/ ٥٠٠).

القاعدة الثامنة والثلاثون

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمات جامعة، تضمنتها هذه القاعدة التي تمثل أصلًا من أصول العدل، والجزاء والحساب[1].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة الزلزلة التي تتحدث عن شيء من أهوال ذلك اليوم العظيم، الذين تشيب لهوله الولدان، فتختم السورة بهذه القاعدة -التي نحن بصدد الحديث عنها- وتأتي مصدرة بفاء التفريع، فقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ ليتيقن المحسنون بكمال رحمة الله، والمسيئون بكمال عدله ﷻ!

إن من أعظم ما يجلي كون هذه الآية من جوامع المعاني، ومن قواعد القرآن المحكمة، أن النبي ﷺ لما ذكر أقسام الخيل وأنها ثلاثة، وفصّل ذلك بتفصيل طويل، ثم سئل ﷺ عن الحُمُر -وهي جمع حمار- فقال: «ما أنزل عليَّ في الحُمُر شيء إلا

---

(١) ينظر: القواعد الحسان للسعدي (١٤١)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٦) حيث قال: «وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم».

هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[1].

ومعنى جوابه ﷺ: «أنها آية منفردة في عموم الخير والشر ولا أعلم آية أعم منها؛ لأنها تعم كل خير وكل شر»[2].

وعلى هذا الفهم العام لهذه الآية الكريمة، سار الصحابة رضي الله عنهم في فهمهم الذي تعلموه من النبي ﷺ، ومن ذلك:

* أن عائشة جاءها سائل فسألها فأمرت له بتمرة، فقال لها قائل: يا أم المؤمنين إنكم لتصدّقون بالتمرة؟! قالت: نعم والله! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أوليس فيها مثاقيل ذر كثيرة؟!

* وعنها رضي الله عنها أن سائلًا جاءها، فقالت لجاريتها: أطعميه! فوجدت تمرة، فقالت: أعطيه إياها، فإن فيها مثاقيل ذر إن تُقُبِّلت!

* وروي أن عمرَ رضي الله عنه أتاه مسكين -وفي يده عنقود من عنب- فناوله منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذر كثيرة!

وقد روي نحو هذا عن أبي ذر، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أجمعين[3].

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب النفقة، فثمة معنى آخر يتفطن له أرباب القلوب الحيّة، وهو: **الخوف من تبعة السيئات**، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الحارث ابن سويد: أنه قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾

---

(١) البخاري (٢٢٤٢)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة.

(٢) التمهيد (٤/ ٢١٩).

(٣) ينظر في هذه الآثار كلها: الدر المنثور: (١٥/ ٥٩٣).

قال: **إن هذا الإحصاء شديد**[1].

وفي السنة الصحيحة من الأمثال والقصص ما يبين بجلاء معنى هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ولعلي أكتفي في هذا المقام بهذين الحديثين اللذين لن تتضح الصورة إلا بهما جميعًا:

أما الحديث الأول فهو قوله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية -بئر- قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها -خفها- فاستقت له به، فسقته إياه فغُفر لها به»[2].

وأما الحديث الآخر: فهو الحديث المتفق عليه، الذي يخبر فيه النبي ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة، ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلًا[3].

وقد عقّب الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري -بعد ما روى حديث الهرة-: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل»[4]، **وهذا هو الشاهد الذي ينبغي أن نتأمله ههنا**: فتأمل - أيها المؤمن - كيف جاء هذان الحديثان ليفسرا لنا عمليًا هذه القاعدة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فتلك المرأة التي لم يذكرها النبي ﷺ بأنها عابدة! أو صائمة! بل لم يذكرها إلا بالبغاء! ومع هذا فقد نفعها هذا العمل! وأي عملٍ هو؟ إنه سقي حيوان من

---

(١) الدر المنثور: (١٥/ ٥٩١).
(٢) مسلم (٢٢٤٥).
(٣) البخاري (٣١٤٠)، ومسلم (٢٦١٩) واللفظ له.
(٤) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٢).

أنجس الحيوانات (الكلب)! ولكن الرب الرحيم الكريم لا تضيع عنده حسنة، بل كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي الحديث الثاني: لم يذكر النبي ﷺ سببًا أدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له!

كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وبه يتبين دقة كلام الإمام الزهري: حين علق على هذا الحديث بقوله الآنف الذكر: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل».

إن من أعظم توفيق الله تعالى لعبده أن يعظّم الله، ومن أظهر صور تعظيم الرب جل وعلا: تعظيم أمره ونهيه، وإجلال الله ﷻ وتوقيره، فلا يحقرن صغيرةً من الذنوب مهما صغر الذنب في عينه؛ لأن الذي عصي هو الله ﷻ، كما قال بلال بن سعد رحمه الله: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيت»[(١)].

وتأمل مقولة الإمام الجليل عون بن عبد الله رحمه الله حينما قرأ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]: «ضج -والله- القوم من الصغار قبل الكبار»[(٢)]، فمن كان قلبه حيًا تأثر بأي معصية، كالثوب الأبيض الذي يؤثر فيه أي دنس، وإلا فإن العبد إذا لم يجد للذنوب أثرًا -وإن كانت من الصغائر- فليتفقد قلبه، فإنه على شفا خطر! ولابن الجوزي رحمه الله

---

(١) الزهد للإمام أحمد: (٣٨٤).

(٢) التمهيد (٢/ ٨٤).

كلمات نفيسة في هذا الموضوع في كتابه: «صيد الخاطر».

ولهذا لما قالت عائشة للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا! -تعنى قصيرة- فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». رواه أبو داود والترمذي وصححه[(١)].

وأما عدم زهد المؤمن في أي عمل صالح - وإن ظنّه صغيرًا - فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! قال ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[(٢)].

ولما سأل أبو برزة رضي الله عنه نبينا ﷺ فقال: يا نبي الله! علمني شيئا أنتفع به! قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[(٣)].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»[(٤)].

فتأمل -يا عبد الله- كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة!

كم نمر في يومنا بغصن؟ أو بحجر؟ أو زجاجة منكسرة؟ فربما تكاسلنا عن إزالتها كسلًا في أمثال هذه الأعمال التي هي من أسباب دخول الجنة، وأرشد إليها بعض أصحابه!

---

(١) أبو داود ح (٤٨٧٧)، الترمذي ح (٢٥٠٢) وصححه.
(٢) مسلم ح (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) مسلم ح (٢٦١٨).
(٤) مسلم ح (١٩١٤).

ولو أردتَ أن تفتش في حياتنا اليومية لو جدت فيها عشرات الأمثلة من الأعمال اليسيرة، التي لو جمعت لشكلت سيلًا من الحسنات، دمعة يتم تمسحها، أو جوعة فقير تسدها، أو مساعدة عاجز، أو ابتسامة في وجه مسلم، في عدد من الأعمال لا يمكن حصرها، فما أحرانا أن نكون سباقين إلى كل خير، وإن دق في أعيننا، متذكرين هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

نسأل الله تعالى أن يضاعف لنا الحسنات، وأن يتجاوز عن السيئات، وأن ييسر لنا الخير، ويعيذنا من موارد الشر.

القاعدة التاسعة والثلاثون

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمةٍ جامعة، هي قاعدة من قواعد تربية النفس، وتوجيه علاقتها مع الله ﷻ[1].

وهذه القاعدة بدئت بالفاء -التي تسمى بفاء التفريع- المرتبطة بالجملة الشرطية، يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ١ - ٨].

وغني عن التفصيل أن هذه السورة العظيمة -سورة الشرح- «احتوت على ذكرِ عنايةِ الله تعالى لرسوله بلطف الله له، وإزالةِ الغمّ والحرجِ عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريفِ قدره؛ لِيُنَفِّسَ عنه؛ **فمضمونُها شبيهٌ بأنه** حجةٌ على مضمون سورة الضحى؛ تثبيتًا له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان لِيقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بما يعلمه النبي ﷺ»[2].

---

(١) قال العلامة النحرير الطاهر ابن عاشور: «وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني» التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير: (٣٠/ ٣٥٩).

فإذا اتضح تبين موقع هذه القاعدة التي نتحدث عنها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ والتي يأمر الله فيها نبيه ﷺ إذا انتهى من طاعة أو عملٍ ما أن ينصب ويبدأ في عمل أو طاعة أخرى، وأن يرغب إلى ربه في الدعاء والعبادة، والتضرع والتبتل، لأن حياة المسلم الحق كلها لله، فليس فيها مجال لسفاسف الأمور، بل إن اللهو الذي تبيحه الشريعة لأصناف من الناس كالنساء والصبيان، أو في بعض الأوقات كالأعياد والأفراح؛ فإن من أعظم مقاصد ذلك أن يستجم الإنسان - والاستجمام للجد مرة ثانيةً من الشغل النافع - وأن يعيش العبودية لله في جميع أحواله، فهو يعيشها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وفي الحضر والسفر، وفي الضحك والبكاء، ليتمثل حقًا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، متأسيًا -قدر الطاقة- بالثلة المباركة من أنبياء الله ورسله الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الرغبة في الله، وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلى لقائه، فهي رأس مال العبد، وملاكُ أمره، وقوامُ حياته الطيبة، وأصلُ سعادته وفلاحه ونعيمه، وقرةُ عينه، ولذلك خلق، وبه أُمِرَ، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨]»[1].

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

---

(١) روضة المحبين: (٤٠٥).

معنى عظيم، وهو أصل من الأصول التي تدل على أن الإسلام يكره من أبنائه أن يكونوا فارغين من أي عمل ديني أو دنيوي! وبهذا نطقت الآثار عن السلف الصالح رحمهم الله:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأمقت أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل دنيا ولا آخرة[1]، وسبب مقت ابن مسعود رضي الله عنه لهذا النوع من الناس؛ لأن «قعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه **من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة**»[2].

ولقد دلّ القرآن على أن هذا النوع من الناس الفارغين -وإن شئت فسمهم البطالين- ليسوا أهلًا لطاعة أوامرهم، بل تنبغي مجانبتهم؛ لئلا يُعدوا بطبعهم الرديء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، **يقول العلامة السعدي** رحمه الله: «ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إمامًا للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، **فحفظ بذلك ما حفظ من وقته**، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إمامًا»[3].

ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أنها تربي في المؤمن سرعة إنجاز الأمور -ما استطاع إلى ذلك سبيلًا- وعدمِ إحالة إنجازها إلى وقت الفراغ، فإن ذلك من الأساليب التي يخدع بها بعض الناس

---

(١) المعجم الكبير: (٩/ ١٠٢).
(٢) الكشاف: (٤/ ٧٧٧).
(٣) تفسير السعدي (ص٤٧٥).

نفسه، ويبرر بها عجزه، وإن من عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز!

قال بعض الصالحين: «كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس» علق ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: على هذا فقال: «يشير إلى أنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسرانًا»[1]، ومن جميل ما قيل في هذا المعنى ذينك البيتين السائرين:

إذا هجع النُّوّامُ أسبلتُ عَبرتي وأنشدتُ بيتًا فهو مِن أحسن الشعر
أليس من الخسران أنَّ لياليًا تمر بلا شيءٍ وتُحسب مِن عمري

ومن الحكم السائرة: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد! وهي حكمة صحيحة يشهد القرآن بصحتها، وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: إن التأخير له آفات! وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، والشواهد على هذا كثيرة:

- **فمن الناس من يكون عليه** التزامات شرعية بينه وبين الله، كقضاء الصيام، أو أداء فرض الحج -مثلًا- فتراه يسوّف ويماطل، حتى يتضايق عليه الوقت في الصيام، أو يفجأه الموت قبل أن يحج! ولئن كان هذا قبيحًا ومذمومًا في حقوق الله؛ فهو في حقوق الخلق -المبنية على المشاحة- أشد وأعظم، وكم ندم من كانت عليهم ديون حين تساهلوا في تسديدها وهي قليلة، فتراكمت عليهم؛ فعجزوا عنها، وصاروا بين ملاحقة الغرماء، والركض وراء الناس وإراقة ماء الوجه للاستدانة من جديد، أو للأخذ من الزكاة!! فهل من معتبر؟!

- **ومن** آثار مخالفة هذه القاعدة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾: أن بعض الناس لا يهتبل ولا يستغل الفرص التي تسنح في طلب العلم وتحصيله، فإذا انفرط

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٢١).

عليه العمر، وتقضى الزمن؛ ندم على أنه لم يكن قد حصل شيئًا من العلم ينفعه في حياته وبعد مماته!

وقل مثل ذلك: في تفريط كثير من الناس -وخصوصًا الشباب والفتيات- في التوبة، والإنابة، والرغبة إلى الله، بحجة أنهم إذا كبروا تابوا، وهذا لعمر الله من تلبيس إبليس!

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

وقوله تعالى -في هذه القاعدة التي هي مدار حديثنا-: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أبلغ، وأعظم حادٍ إلى العمل، والجد في استثمار الزمن قبل الندم.

قـواعــد قـرآنــيـة

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

القاعدة الأربعون

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمةٌ جامعة، وهي من أعظم قواعد الشرائع السماوية كلها، والتي لا يشذ عنها شيء.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة من أعظم القواعد الشرعية، التي يدخل تحتها من الفروع ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتتفق عليها جميع الشرائع السماوية؛ ذلك أن الشرائع كلها من لدن حكيم عليم: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ومَرَدُّ معرفة العدل من الجور إلى أدلة الشريعة المطهرة، ونصوصها المفصلة.

يقول الإمام أبو محمد ابن حزم: «العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه، ولا ترى أحدًا يذم العدل، فمن كان العدل في طبعه؛ فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين»[1].

وقال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «والعدل مما تواطأت على حسنه

---

(١) الأخلاق والسير (١٦٢).

الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتمدَّح بادعاء القيام به عظماءُ الأمم، وسجلوا تمدُّحهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية.

وحسن العدل بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة، أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل بدافع إحدى القوتين: الشاهية والغاضبة»[1].

ويقول ابن تيمية: «إن جماع الحسنات: العدل، وجماع السيئات: الظلم»[2].

وقال الماورديّ: «إنّ ممّا تصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل، الّذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطّاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنّه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكلّ جزء منه قسط من الفساد حتّى يستكمل»[3].

إن هذا المعنى الشرعي العظيم -وهو العدل- الذين نتفيأ ظلال الحديث عنه من وحي هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ لهو معنى تعشقه النفوس الكريمة، والفطر السوية، ولله! كم كان تحقيقه سببًا في خيرات عظيمة، ومنح كثيرة؟! والعكس صحيح، وكم كان تحقيق هذا العدل سببًا في إسلام أناس ما حثهم على الإسلام إلا تحقيق هذا الأصل الكبير: العدل، وإليكم هذا الموقف الذي يبين شيئًا من آثار العدل في نفوس الخصوم قبل الأصدقاء:

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق الشعبي قال:

وجد علي بن أبي طالب درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح

---

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ص (١٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (١/ ٨٦).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي: (١٤١).

يخاصمه[1] قال: فجاء علي حتى جلس إلى جنب شريح، فقال له علي: يا شريح! لو كان خصمي مسلمًا ما جلست إلا معه، ولكنه نصراني! وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم وإياهم في طريق فاضطروهم إلى مضايقه[2]، وصغروا بهم كما صغر الله تعالى بهم، من غير أن تطغوا»، ثم قال علي: هذا الدرع درعي،لم أبع ولم أهب! فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين! هل من بيّنة؟ قال: فضحك علي وقال: أصاب شريح! ما لي بينة، فقضى بها للنصراني!

قال: فمشى خُطىً ثم رجع، فقال النصراني: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء! **أميرُ المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**، الدرع والله درعك، يا أمير المؤمنين، أتبعتُ الجيش - وأنت منطلق إلى صفين - فخرجتْ من بعيرك الأَوْرَق، فقال: أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس، فقال الشعبي: فأخبرني من رآه: يقاتل الخوارج مع علي يوم النهروان[3].

فتأمل يا عبد الله! كيف أثّر هذا الموقف العجيب من الرجل الأول في الدولة آنذاك في إسلامه، بل والانضمام إلى جيوشه التي تقاتل الخوارج المارقين، وليست هذه فضيلة إقامة العدل في مثل هذه المواقف، بل إن الإمام العادل أحدُ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلّه.

وفي الموقف مَلْحظٌ آخر: ألا وهو أن هذا القاضي لم يكن ليجرؤ على مثل هذا

---

(١) شريح القاضي: أحد أشهر القضاة في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

(٢) هذا قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو في صحيح ابن حبان (٥٠١).

(٣) تاريخ دمشق: (٤٢/ ٤٨٧)، البداية والنهاية: (٨/ ٤).

الحكم لولا أنه وجد ما يسنده ويقوي جانبه في إصدار مثل هذا الحكم على خليفة المسلمين آنذاك، مِن الخليفة نفسه، ومتى شعر القاضي أنه لا يستطيع أن يحكم بالعدل الذي يراه، فعلى القضاء السلام.

وهذا الموقف -أيضًا- يبرز جانبًا من جوانب عظمة هذا الدين في العدل مع الخصوم والأعداء، فلم يمنع شريحًا كون الخصم نصرانيًا أن يقضي له، وهذا تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وتمتد ظلال هذه القاعدة العظيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ لتشمل جميع شؤون الحياة، فمن ذلك:

- **العدل مع الزوجات**: وهذا من الأمور المحكمات في باب العلاقة الزوجية، وهو أظهر من أن يفصل فيه، إلا أن الذي يؤكد عليه: هو تذكير الإخوة المعددين، بأن يتقوا الله في العدل بين زوجاتهم، وأن يحذروا من آثار عدمه السيئة في الحياة قبل الممات: وذلك فيما يقع بين الأولاد غير الأشقاء من نزاعات وخلافات، حتى يكونوا شماتة للآخرين، وأما في الآخرة فهو أعظم وأشد، وعليهم أن يتأملوا سيرة النبي ﷺ مع زوجاته التسع، ففيها الغَنَاء والعبرة.

ومن صور تطبيقات هذه القاعدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾:

- **العدل مع الأولاد**: فعلى الوالدين أن يعدلوا بينهم، وأن يتجنبوا تفضيل بعضهم على بعض، سواء في الأمور المعنوية كالحب والحنان والعطف ونحو ذلك، أو في الأمور المادية كالهدايا والهبات، ونحوها.

- **العدل والإنصاف في إصدار الأقوال، وتقييم الآخرين**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن

﴿يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وهذا باب واسع جدًا، يدخل فيه الكلام على الأفراد، والجماعات، والفرق، والكتب والمقالات، وغير ذلك.

وما أجمل ما قاله ابن القيم في نونيته:

وتَحلَّ بالإنصاف أفخر حلــة ... زِيْنَتْ بها الأعطاف والكتفان

وتعرّ مِن ثوبين مَن يلبسهمـا ... يلقى الردى بمذمــة وهـوان

ثوب من الجهل المركّب فوقَه ... ثوب التعصُّب بئست الثوبان

ومن صور العدل التي دلّت عليها هذه القاعدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾:

- **العدل في العبادة**: بحيث لا يتجاوز بها صاحبها العدل، ويتعدى الحد، ولا يقصّر في أدائها على الوجه الشرعي.

- **العدل في النفقات**: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال ﷻ مثنيًا على عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وكان من أدعية النبي ﷺ العظيمة: «وأسألك القصد في الفقر والغنى»[(١)].

وبالجملة: فمن تأمل أوامر الله تعالى وجدها وسطًا بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط، وهذا هو معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.

(١) سنن النسائي (٣/ ٥٤) ح (١٣٠٥)، وصححه ابن حبان ح (١٩٧١).